المحاضرة الافتتاحيّـة

أ. د. رشيد بن مالك

مدير مركز البحث العلميّ والتّقنيّ

لتطوير اللّغة العربيّة

سيّداتي، سادتي، أعبر لكم عن سعادتي الكبيرة بلقائي بكم في هذا الملتقى الدولي حول الوضع الراهن للبحث السيميائي المعاصر، كما أعبر باسمي و باسم اللجنتين العلمية والتنظيمية عن جزيل شكرنا لكل الذين لبوا الدعوة وشرفونا بحضورهم للمشاركة في هذه التظاهرة العلمية.

إن انعقاد هذا الملتقى بالجزائر و بمشاركة وجوه ساهمت في تطور البحث في مدرسة باريس يمثل بالنسبة لنا لحظة ستوسم تاريخ هذه المادة.إني مقتنع أن هذا اللقاء ستكون له انعكاسات مباشرة على البحث السيميائي في البلدان العربية وبشكل خاص في المركز الذي نسيره ونشرف على مشاريع بحثه.

في هذا الإطار نأمل أن يمكننا هذا اللقاء من عقد علاقات تعاون جديدة ويوطد تلك التي قامت سلفا.كما نأمل أن يتجدد هذا النوع من اللقاءات. أشكركم مرة أخرى على حضوركم وإسهامكم.

يشرفني جدا أن أعرب لكم عن سعادتي الكبيرة بوجودكم بيننا في هذا اللقاء العلمي المميز لمناقشة واقع وآفاق البحث السيميائى المعاصر في ظرف خاص، وبحضور وجوه سيميائية متميّزة كان لبعضها الفضل في مرافقة مشروع "أ.ج. غريماس" A. J. GREIMAS. وأخص بالذكر "إيفان دارو هاريس"، والباحثة "آن إينو" التي ظلت وفية لهذا المشروع بعد وفاته وفي ظروف معقدة جدا كادت أن تعصف بالمشروع الذي أفنى "غريماس" حياته فيه بالبحث المتواصل بدء من الأربعينيات حتى شهر 28 فبراير 1992 حيث وافته المنية وهويبحث في سيميائية العطور غير عابئ بهذه القيود الصحية القاهرة التي تشلّ القدرة على التفكير والرغبة في البحث.

أستغل هذه الفرصة لأعرب باسمكم جميعا عن تقديرنا لما بذله هذا الباحث من جهود في ترقية البحث السيميائي المعاصر، وأستغل هذه الفرصة أيضا لنعبر عن تقديرنا لأساتذنا دانيال ريق، نادة طوميش، توما بافيل، كورتيس، كلود بريمو، جيرار جينيت، جمال الدين بن شيخ وبيرنار بوتي الذين يرجع لهم الفضل في توجيهنا وتعليمنا المبادئ السيميائية الأولى وحملنا على ضرورة استغلال هذه اللحظة التاريخيّة الحاسمة التي تشكل منعطفا علميا هاما في البحث السيميائي المعاصر الذي كان "يقوده" أ.ج. غريماس.

إن وفاء "آن إينو" لهذا الباحث قادها إلى قراءة سريعة في الفراغ الذي تركه "غريماس" في الساحة العلمية والتفكر بجدية في وضع ميكانيزمات للبقاء في الإطار العلمي العام الذي أرسى قواعده "غريماس"، وهذا تفاديا للانزلاق الذى من شأنه أن يبدد الجهود العلمية المنضوية تحت التحري الجماعي ويحدث التباسا في التعامل مع موضوع البعث وأهدافه

في إطار المشروع الغريماسي، من هذه الزاوية يمكن أن نقرأ مسائل في السيميائيّة[1] تحت إدارة الباحثة "آن إينو" على أنه من جهة محاولة لجمع شمل الباحثين وتوحيد مختلف البحوث السيميائية لا سيما تلك الصادرة عن اتجاهين. الأول ناجم عن فكر "ش. س. بورس" والثاني منضو تحت السيميائية ذات الأصل السوسيري. ومن جهة ثانية توجيه الباحثين والقراء على حد سواء إلى النقاط العلمية الكبرى التي نهض عليها البحث السيميائي من خلال الإنجازات المحققة التي تمس الاتجاهين.

ويمكن أن نلاحظ أن هذا الكتاب يسعى إلى إعادة قراءة المشروع السيميائي باستحضار الرصيد المشترك لجماعة باريس الذي يعكس المنظورات السيميائيّة المختلفة التي تصدى من خلالها الباحثون لدراسة المجموعات الدالة باللّسان وغير اللّسان. ولا بد أن نشير في هذا السياق إلى أن السيميائيات عرفت من 1980 إلى 2000 اكتشافات نظرية قلما رافقتها الدراسات التطبيقية التي من شأنها أن تقدّم إضاءات نظرية ضرورية لفهم الإشكالات التي تقدّمها دراسة المواضيع السيميائيّة المتنوعة التي يصنعها الإنسان في المجتمعات المختلفة.

وإذا مر المشروع عبر مخاض عسير، فلأنّه يعد محصلة طبيعية لتجارب عديدة في البحث المتواصل؛ إذ تعبر كل تجربة عن مسار علمي لا تحقق فيه قيم إلا ويعاد النظر في قيم أخرى عبر التحري عن البديل للإشكاليات المطروحة. ويتم ذلك من خلال الحوار المؤسس والبحوث الجماعية المتواصلة والقناعات العلمية الراسخة المبنية على ضرورة التخلي عن مسار علمي معطى كلما تبين أنه يفتقر إلى الحجة والبرهان. وهذا ما نلحظه في تعليق "أ. ج. غريماس" على سؤال طرحه ميشال آريفي حول الدور الذي يمكن أن تؤديه المعجمية البنيوية، في أثناء الملتقى الذي

نظمه "جون كلود كوكي" و"ميشال آريفي" بـ"سريزي لاسال" حول "من آثار غريماس وما يدور في فلكها" : "يذكّرني "آريفي" وهو يعرب عن تعاطفه معي بأن أطروحتي تستند إلى مفردات الموضة في الحقبة الرومانسية. لقد بدأت فعلا ببحوث لا أجرؤ الآن أن أسميها بحوثا ولكنها كانت تتوافق مع الطريقة الق كان يستعملها اللسانيون في الفترة الممتدة من 1940 إلى 1950. أعتقد أن وظيفة رحلتي عبر المعجمية تعد وظيفة مثيرة للفشل. لأني لاحظت بعد عمل دام خمس أو ست سنوات، أن المعجمية لا تقود إلى أي جهة وأن الوحدات، الليكسيمات أو العلامات لا تفضي إلى أي تحليل، ولا تسمح بالبنينة ولا إلى الفهم الشامل للظواهر، وأنني أدركت أن الأمور تجري "تحت"العلامات. إن السيميائية بطبيعة الحال "نظام من العلامات" ويكون هذا مرهونا بتجاوز هذه العلامات والنظر، نكرر ما قلناه، في ما يجري تحت العلامات. هذا النوع من المسلمة أو التدخل كان ينبغي أن نحياه لننخرط فيه حقيقة. بالنسبة لنا، لقد عشنا لا ملاءمة مستوى العلامات في تجربتنا المعجمية ولهذا سعينا إلى تأسيس المعجمية مع جورج ماتوري في الفترة الممتدة 1940 إلى 1950"[2].

إن النقطة المهمة في هذا التصريح هو أن غريماس بوصفه قائدا في الدرس السيميائي المعاصر كان قاسيا مع نفسه وربما هذه القسوة وهذه النظرة الثاقبة إلى الأمور هي التي حركت في نفسه مكامن التطلع إلى الأرقى والأفضل لقناعته بأن المعرفة تحيا بتجاوز الأخطاء لا بتثبيت الحقائق. وربما كانت هذه القسوة أيضا باعثا في الحديث إلى بارث عن تجربة خفت حدتها، من جهة، بالبحث الذي قام به بارث حول نظام الموضة، ومن جهة ثانية، بتوسيع مشروعه المعجمي الذي يشي بوصف تاريخ المجتمعات من خلال المفردات ليمتد إلى اللغة بكاملها مع انفتاحه على قواعد نظرية جديدة تمحت من أعمال كلود ليفي ستروس

السوسيولوجية ودراسات مارلو بونتي الفلسفيّة مع تعميق التفكير الإيبيستيمولوجي ببلورة نظرية لسانية ذات التوجه الهيالمسلافي. وهذا ما نلمسه في راهنية السوسيرية التي تعد تحديا علميا جديدا حاول من خلاله غريماس أن يبين كيف أن بعض المسلمات السوسيرية يمكن أن ترسي، من خلال التأويلات التي انتهى إليها هيالمسلف و ياكوبسون، قواعد تحليل بنيوي في إطار سيميولوجية عامة[3].

من هذه المنطلقات العلمية، بإصداره الدلالية البنيوية[4]، قاد "أ. ج. غريماس" إنجازا مهما بلور فيه للمرة الأولى نظرية تركيبية ودلالية للصعيد العبر جملي، الخطاب. ونلمس مشروعه الساعي إلى تفكيك الأشكال المعقدة للدلالة إلى عناصر بسيطة في مثال غالبا ما كان يضربه : ندرك العطر بحاسة الشم، وإذا أردنا أن نخبره، ينبغي أن نغادر صعيد الإدراك الأكثر غنًى وننفذ إلى الصياغة الكيمياوية. وهذا ما يحدث تماما في تعاملنا مع اللغة. ينبغي أن نهجر صعيد التجلي ونرقى إلى البنية الأولية التي تستقر عليها اللغة. إنه النموذج الذي عرف باسم المربع السيميائي.

وقد تمكن هذا التوجه القديم الجديد في ظرف وجيز من صناعة جهازه المصطلحي وفرض سلطته المعرفية على البحوث التي يتبنى أصحابها مقتضيات الخطاب العلمي في قراءة الأنظمة الدالة باللسان وغير اللسان. إن ما تحقق في هذا المجال ليس وليد لحظة حاضرة بل إنه محصلة لمسار طويل محفوف بتوترات ناشئة عن بؤر معارضات رافضة ونابذة كل ما له علاقة بالتفكير العلمي.

إن الدراسات السيميائية في الفكر الغربي، وتحديدا مدرسة باريس، شهدت إعادة نظر جذرية بدأت في بداية الثمانينات، ثم لم تلبث

أن توسعت. فما كان من البديهيات بالأمس أضحى في الحقبة الأخيرة موضع تساؤل وجدل؛ ولكنه جدل يهدف إلى صياغة حلول جديدة على نحو ما رأينا ذلك عند "جوزيف كوريس" Joseph Courtés الذي تراجع عن إنجازات اعتبرناها من الثوابت في وقت مضى ولم نتوقع أبدا أنه سيعيد فيها النظر؛ فحصلت عملية قلب أعطت الصدارة في التحليل لمسألة التلفظ بوصفها فعلا محدثا وصانعا للموضوع السيميائي[5].

وقد أفضت هذه القراءة للمشروع السيميائي إلى تقديم بعض البدائل المهمة المتعلقة برهانات التحريك والكفاءة في بعدها الكموني ووضع الموضوع السيميائي وعوامل التلفظ واحتواء المرجع بوصفه كلاما حقيقيا يرتبط بهذه الصفة بالسيميائية العامة. كما قدم جاك فونتانيل بعض الاعتراضات على القواعد الأساسية التي نهضت عليها السيميائية الكلاسيكية : المربع السيميائي، المسار التوليدي والسردية[6]. وفي إضاءات مكنته من الإحاطة بمكامن الخلل في اشتغال المقولات الدلالية داخل المربع السيميائي وانعكاساته على المسار السردي والسردية.

وفي إطار المساءلات التى كانت تغذي النظرية السيميائية، نشير إلى الدراسة المهمة التي أنجزها "بيرنار بوتي" Bernard Pottier حول "السيميائية، السيرورة غير مستحبة" في سبيل استجلاء بعض القضايا النظرية التى تمس الصعيد السطحي في النظرية السيميائية. ولتحقيق هذه البغية، انطلق الباحث من فرضية تطورية طبيعية قادته إلى فحص تحولات الأنظمة السيميائية على متنها. بهذه القفزة النوعية، قدم "بيرنار بوتي" قراءة جديدة للإرث الغريماسي أثبت من خلالها أن السيرورة تعد قاعدة ضرورية لكل برنامج سردي وأن الفاعل المنفذ الذي يحول الحالة للدخول في وصلة بموضوع القيمة ليس في نهاية الأمر إلا سببا في التغيير[7].

ومع كل هذه الجهود النظرية التى أفضت إلى بلورة بعض البدائل المنهجية لمقاربة الموضوعات السيميائية، فقد ظلت بعض المسائل عالقة. وهذا ما نلحظه مثلا في الجدل القائم حول سيميائية الأهواء (sémiotique des passions). وما تتضمنه من أحاسيس وحالات شعورية تتخذ حيزا لها في إطار علاقات الحالة الوصلية أو الفصلية.

وقد ظهرت التباشير الأولى لسيميائية الأهواء في الغضب لـ"أ.ج. غريماس" والذي يتكون من ثلاثة مقاطع "الحرمان"، "الاستياء"، "العدوانية" تنهض على الانتظار الائتماني[8]. ويهدف هذا التوجه الجديد إلى إبراز كل ما تحس به الشخوص في نص معطى بعدما كانت الجهود مركزة في الدراسات السيميائية الأولى على أفعالها[9]. ولما كانت الأهواء التي رشحها البحث السيميائي للتداول، محملة بالتراكمات الفلسفية والأدبية، بدت إمكانية تعويضها ضرورية ولو مؤقتا بـ l'éprouver الذي تعده "آن إينو" هو السيميم الأم لحقل دلالي يضم "الأهواء"، "الإحساس"، "التأثرالأولي"، "الانفعال"، وهو مصطلح لا يقتصر فقط على المستبدل الفرنسي ولكنه يضم مؤقتا كل الكلمات الممكنة في مختلف اللغات[10].

ومع كل ذلك، فإن المسألة أضحت مفتوحة على ما يمكن أن يحقق مستقبلا في التأويل السيميائي للأهواء.

وإزاء هذه الهزات العنيفة التي حدثت على الصّعيدين النظري والتّطبيقي في الفكر الأوروبي المعاصر، وأفضت إلى ظهور سيميائية جديدة لجيل جديد، فإن الباحث العربي ظل يشتغل في ظروف خاصة ووفقا لقيود سيجته في إطار له خصوصياته. فهو مطالب بالتفكير على جبهات عديدة : ينجز في الوقت ذاته دراسات متنوعة نفترض أنها تغطى قراءة وتمثلا، وترجمة، كل ما أنجز من بحوث سيميائية قديمها

وحديثها حول مختلف الممارسات الدالة باللسان وغير اللسان مع مراعاة الخصوصية المحلية في أثناء التطبيق على النصوص العربية. وكل هذا يشتغل في الاتجاه المعاكس تماما للقناعات الراسخة في الأذهان والتي لازالت تغذي الممارسات النقدية في كثير من البلدان العربية. وتشيد هذه القناعات على دراسة حياة الأديب وظروفه وأسلوبه الجزل وعاطفته الفياضة. ويتوج هذا البحث بالحكم على عاطفة الأديب : هل هو صادق في تعبيره أم غير صادق ؟ إننا نعيش وضعية لا يرغب فيها القديم أن ينسحب من حاضر يلقى فيه الجديد صعوبة كبيرة في الانطلاق بحرية من قواعد خلفية تدعمه و تعزز ما تم إنجازه.

ومع كل ذلك، فإن البحوث البنيوية والسيميائية على حد سواء في الساحة النقدية العربية استطاعت منذ ظهور إرهاصاتها الأولى في السبعينيات أن تحدث هزة عنيفة في الممارسات النقدية السائدة بتقديم بدائل منهجية لم تلق إقبالا في مستوى الأهمية التي تكتسيها. فنتج عن هذا وضع مفارق تتصدره مجموعة من الاختيارات التي ينبغي أن يحسم فيها الباحث. في الوقت الذي خطا فيه البحث الأوروبي خطوات عملاقة، لا زلنا ضائعين في متاهات المصطلح. كل باحث يترجم حسب ما يحلو له. ولم تتوصل نسبة غير قليلة من البحوث السيميائية العربية إلى بلورة خطاب علمي لا يلقى فيه أصحابه مشقة في تمرير المعارف السيميائيّة. نستثني من ذلك بعض الدراسات العربية الرائدة في هذا المجال التي حاول أصحابها تبسيط خطابهم إلى أدنى درجة ممكنة؛ همهم الوحيد في التعامل مع النظرية السيميائية أن يفهموا ما فيها من المعقد أحسن الفهم ويتمثلوه جيدا ليتسنى لهم بعد ذلك تبسيط وتبليغ ما فهموه وما تمثلوه في خطاب علمي يحكم سيطرته على المسائل المعقدة، يروضها ويبلغها أحسن تبليغ للقارئ.

إذا كانت السّاحة النقدية قد عرفت تخلفا كبيرا في مجال ترجمة البحوث السيميائية، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بحدة يتعلّق بطبيعة النصوص الغزيرة التابعة لمدرسة باريس التي يقع عليها الاختيار والأولويات التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان في عملية انتقائها. هل نولي أهمية إلى النصوص الخاصة بتاريخ البحث السيميائي أم نجنح إلى ترجمة البحوث النظرية والتطبيقية التي ظهرت قبل وفاة "أ. ج. غريماس". وإذا احتفظنا بهذه الفرضية، فإننا لا نشك في أن هذا الاختيار سيفرز حركة نشيطة في الترجمة وسيرافقها جدل كبير وقراءات نقدية في مضمون هذه النصوص. وهي قراءات ستتم في جميع الحالات بمنأى عن المستجدات البحثية التي ظهرت بعد وفاة غريماس، وعن الاعتراضات على المسائل النظرية المنظور إليها على أنها حقائق في سيميائية الجيل الأول.

وإذا افترضنا أن القراءات النقدية العربية لطروحات غريماس مؤسسة ولا يتسرب إليها الشك، فإنها ستشيد أيضا بمنأى عن اعتراضات السيميائيين أنفسهم على طروحاتهم على نحو ما حصل ذلك لغريماس وكورتيس وآخرين. إن هذه المسائل التي تعمدنا إثارتها تخص توجها بحثيا يشتغل بشكل متزامن على النصوص المعاصرة والتراثية. ويبغي أن تنشأ هذه الحركية المرنة والدائمة والمشيدة على الحوار المتصل بين هذه وتلك كلما اعترضت سبل الباحث معضلة مصطلحية أو مشكلة يقتضي حلها التدقيق في مفهوم أو الإحاطة بإرهاصات مسألة نظرية. غير أن هذا العمل الذي يدخل في إطار برنامج ملحق لا ينبغي أن يظل مفتوحا على ثرثرة مصطلحية لا علاقة لها بجوهر البرنامج الأساسي الذي يضطلع به الباحث ولا بالنتائج المتوخى تحقيقها من ورائه. ويمكن أن نبرر انخراط رؤيتنا المنهجية في هذا التوجه بما تعترضنا من مشاكل

وتأبى مواصلة الرحلة. إن الذي يهم السائق وهو يعرضها على ميكانيكي أن يعاين موضع العطب ويصلحه. فهو غير معني على الإطلاق بالجدل حول أسماء القطعة التي تآكلت. وهو غير معني أيضا بهذه الثرثرة التي تنشأ حول تعريب أو ترجمة الأسماء التي نسمي بها هذه القطعة. وقد تستغرق هذه الثرثرة وقتا طويلا والسائق في حيرة من أمر هذه السيارة المعطوبة الثابتة في مكانها.

إن إثارتنا لهذه المسائل صادرة أساسا عن قناعتنا بأننا وصلنا إلى طريق مسدود. ولصياغة إجابة لمختلف المسائل العالقة، وحتى نأخذ فكرة جلية عن الوضع الذي سيؤول إليه البحث السيميائي، ينبغي أن نفكر مليا فيما كتب من بحوث وفي الجهود التي بذلت ولازالت تبذل وفي الحلول التي يمكن من خلالها سد الثغرات ومعاينة نقاط القوة والضعف في الخطاب السيميائي. وهذا كله يشكل تحديات صعبة، لحل ما تحمله هذه الكلمة من معاني، ينبغي رفعها بالتأسيس لحوار علمي يأخذ في الحسبان الأولويات التي ينبغي أن تعقد ترجمة هذا الكتاب أو ذاك مع التركيز في كل ذلك على ترجمة البحوث اللسانية في المعجمية والدلالية التى كان لها عميق الأثر في ترقية البحث السيميائي الراهن والتي دونها لا نستطيع أن ندرك الفروقات الجوهرية بين كل تيار. ومن الواضح أن ترجمة نصوص السيميائيين الرواد إلى اللغة العربية تهدف إلى تبليغ المعرفة السيميائية في مصدرها وفتح آفاق جديدة في البحث أمام القارئ العربي وتنمية حسه النقدي وتوسيع دائرة اهتمامه بصورة تجعله لا ينظر إلى الموضوعات السيميائية فلا يقنع بما هو سطحي، ولا يكتفي بنتيجة علمية إلا بعد التحقق من سلامة فرضياتها وصحة التفكير الذي أفضى إليها.

يجدر بنا في نهاية هذه الكلمة أن نتساءل عن الأسباب التي وقفت وراء اختيارنا لهذه الوجوه السيميائية في فرنسا وبعض البلدان العربية على الرغم من اختلاف المقاصد العلمية والنظام الإيبيستيمى لهؤلاء وأولائك. إننا ندرك عمق الهوة التي تفصلنا عنهم. وهي هوة يمكن سدها بالتحري العلمي الجماعي وحسن الإنصات لبعضنا البعض والإكثار من هذه اللقاءات التي بفضلها نستطيع أن نكون فكرة عما وصل إليه البحث هناك وإرساء قنوات حوار دائم مع ما يحقق من إنجازات في الفكر السيميائي الأوروبي. وهذا ما نصبو إليه من خلال عقد هذا الملتقى الذي أعتبره نقطة انطلاق حقيقية لحوار سيجمع لأول مرة الكفاءات العلمية الفاعلة في الفكرين الأوروبي والعربي. وسيمكننا من دون أدنى شك من الوقوف عند المستجدات العلمية الراهنة وما آل إليه البحث السيميائي المعاصر بعد الفراغ الكبير الذي تركه غريماس؛ فأثر ذلك سلبا من حيث القيادة وإدارة البحث الجماعي من جهة وتشتت الجهود العلمية من جهة ثانية. وهذا لا يعني أبدا أن البحث توقف. إن إشعاعات فكر غريماس لا زالت تلقي بدفئها العلمي وسخونتها النظرية والتطبيقية في كل ما أنجز بعد غيابه، وهذا ما لمسناه في حرارة خطاب صنعته آن إينو في أثناء أول لقاء علمي جمعنا بها. وهذا ما لمسناه أيضا في رغبتها الحادة في جمع كل الباحثين وتوحيد جهودهم وهي تروي وقائع هذه القصة اللذيذة التي رافقت فيها المعلم غريماس في رحلته العلمية.

الإحالات

(1)- Anne Hénault (sous la direction de), Ouestions de sémiotique, P.U.F, Paris, 2002.

(2)- Michel Arrivé, Préface mêlée de souvenirs sur la préhistoire de la sémiotique in A.J. Greimas, La mode en 1830, P.U.F, Paris, 2000, p. XI.

(3)- A.J. Greimas, L'actualité du saussurisme, in A.J. Greimas, La mode en 1830, P.U.F, Paris, 2000, p. 371-382.

(4)- A.J. Greimas,Sémantique structurale, Larousse, 1966; rééd. PUF, 1986.

(5)- J. Courtés, L'énonciation comme acte sémiotique, Nouveaux actes sémiotiques, Pulim, Université de Limoges, n° 58-59, 1998.

(6)- Jacques Fontanille, Sémiotique et littérature, Essai de méthode, PUF, Paris, 1999, pp.3-9.

(7)- Bernard Pottier, Un mal-aimé de la sémiotique : le devenir in Exigences et perspectives de la sémiotique.

Recueil d'hommage pour A. J. Greimas, H.G. Ruprecht éd, Amsterdam/ Philadelphie, John Benjamins, 1985, 2 vol., pp.499-503.

(8)- A.J. Greimas, De la colère, étude de sémantique lexicale in Du sens II, Essais sémiotiques, Seuil, Paris, 1983, pp. 225-246.

(9)- Joseph Courtés, Analyse sémiotique du discours, de l'énoncé à l'énonciation, Hachette, Paris, 1991, p.107.

(10)- Anne Hénault, Le pouvoir comme passion, PUF, Paris, 1994, p. 5.